الشعر في كتب التاريخ المملوكية، كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن اياس انموذجا

الدكتورة أماني العامر

جامعة نانت / فرنسا

الملخص

تناول البحث نبذة عن ابن اياس وكتابه بدائع الزهور في وقائع الدهور، وتتناول الدراسة أيضا، إحصاء لعدد الأشعار ومصادرها في الكتاب، ودراسة هذه الأشعار دراسة تاريخية ولغوية، مع تقسيمها على حسب الأنواع الشعرية، مثل المدح والرثاء والهجاء والمداعبات الشعرية ومواكبة المناسبات السلطانية والأحداث الوطنية في العصر المملوكي وغيرها، بالإضافة على ذلك دراسة هذه الأشعار دراسة لغوية، تسلط الضوء على الأدب في العصر المملوكي في ضوء مؤرخ أبدع في كتابة التاريخ ولم يكن له أي مؤلف أدبي، على الرغم من نظمه للشعر وحرصه على تزيين كتابه به.

الكلمات المفتاحية: الشعر، ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور.

Abstract

The research provides an overview of Ibn Iyas and his book "Bada'i al-Zuhur fi Waqa'i al-Duhur." The study also includes a statistical analysis of the number of poems and their sources in the book, along with a historical and linguistic examination of these poems. The poems are categorized according to their types, such as praise, elegy, satire, poetic jokes, and poems accompanying sultanic occasions and national events during the Mamluk era, among others. Additionally, the study offers a linguistic analysis of these poems, shedding light on literature

in the Mamluk period through the perspective of a historian who excelled in writing history but did not have any literary works, despite his composition of poetry and his keenness to adorn his book with it.

Keywords: poetry, Ibn Iyas, Badâʾiʿ az-Zuhûr fî waqâʾiʿ ad-Duhûr,.

المقدمة

ابن إياس، أبو البركات، محمد بن أحمد شهاب الدين الناصري العمري الجركسي الحنفي، مؤرخ مصري ولد في القاهرة سنة ٨٥٢ / ١٤٤٨ وتوفي بعد سنة ٩٢٨ / ١٥٢٢، إن المعلومات عن سيرته ضئيلة (نجد ترجمة ابن اياس في عدد من المراجع منها عنان: ١٩٦٩، ص (١٥٢ – ١٦٨). زيادة: ص (٤٦ – ٥٥). مصطفى ١٩٥١، مقدمة الكتاب. شاكر مصطفى: ابن اياس مؤرخ الفتح العثماني لمصر الجزء الثالث، ص ١٩٠. أيضا قامت الكثير من الدراسات المهمة بأوروبا حول ابن اياس نذكر منها:

Brockelmann, Carl, 1909 / Lellouch, Benjamin, 2006 / Cahen, Claude, 1936, *REI*, Cahier IV, p. 333-362/ .Espéronnier, Maryta., 1996, Brill, p. 175-186 / Espéronnier, Maryta., 1997 *Der Islam*, vol. 74 no.1, p. 137-155 / Lellouch, Benjamin. , 1995, *Revue du Monde Musulman et de la Méditerranée*, vol. 75-76, p. 117-130/ Martel-Thoumian, Bernadette, 2000, , *Annales Islamologiques*, p. 315-325 / Martel-Thoumian, Bernadette, 2004 *Annales Islamologiques*, p. 405-435 /Martel-Thoumian, Bernadette, 2013, *Journal Asiatique*, vol. 301, p. 425-434. / Martel-Thoumian, Bernadette., 1999, *Annales Islamologiques* / Ḥawlīyāt Islāmīya, vol. 33, p. 121-139. (كان شحيحا في ذكر الأخبار عن عائلته وعن نفسه، والغريب أننا لا نجد أي ترجمة وافيه له لدى المعاصرين

أو المتأخرين عليه، (البكري: ٢٠٠٧، ٧) أيضا (حاجي خليفة :١٩٨٢، ١٥٨.) أيضا (أحمد، ١٩٧٤، ١٦١) إلا أن ابن إياس نفسه أتى في مواضع متفرقة من أجزاء كتابه الكبير «بدائع الزهور في وقائع الدهور» بلمحات عن أسرته، فهو ينتمي إلى أسرة مملوكية ذات شأن، تولى بعض أفرادها مناصب عالية (القلقشندي: ١٩٨٧، ج٤، ١٤. العريني: ١٩٦٧، ص١٤٨. رزق: ١٩٦٢، ج١، ٨٧). أما كتاب «بدائع الزهور في وقائع الدهور»: فهو أهم مؤلفات ابن اياس. ويبدو أن ابن اياس كان يخطط فيه لعمل تاريخ عام وإسلامي لمصر حتى عهده وذكر فيه فضائل مصر وأخبارها منذ الخليقة حتى سنة ٩٢٨هـ. وقد كتب ابن إياس كتابه «بدائع الزهور» على طريقة الحوليات. فكان يدون الحوادث سنة بسنة، وشهراً بشهر في السنين التي لم يعاصرها، ويوماً بيوم في السنوات التي عايشها؛ أي في الأجزاء الأخيرة من الكتاب. وقد تتبع المؤرخ في تلك الحوليات أحداث مصر المتنوعة: من سياسية داخلية وخارجية، وإدارية، واقتصادية، واجتماعية، وعمرانية، وفكرية، تتبعاً تفصيلياً دقيقاً.

أولا: الشعر في كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور

في البداية، لم يكن الباحثين مهتمين بتاريخ العصـــر المملوكي بقدر اهتمامهم بتاريخ القرون الثلاثة الأولى للإسـلام، اذ أعتقد الكثير من الناس أن هذه المدة كانت فترة انحدار سـياسـي وعلمي، ولكن منذ بداية القرن العشرين، بدأ الباحثون الاهتمام بمختلف الجوانب المرتبطة بهذه الفترة، وخاصـــة الأدب المملوكي، تختلف أهمية هذه الأعمال، ولكن أشـــهرها أعمال، محمود سليم رزق: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي (رزق: ١٩٥٥) , فوزي محمد أمين: المجتمع المصـري في أدب العصـر المملوكي الأول (أمين: ١٩٨٢) ، محمد زغلول ســـلام: الأدب في العصـــر المملوكي ،عزيزة بشـــير أحمد المغربي: الشـــعر الاجتماعي في العصر المملوكي اتجاهاته وخواصه الفنية (سلام: ١٩٧٠) ، وعلى الرغم من أن الاهتمام تركز على الأدب المملوكي، إلا أن تحليل الشعر المضمن في الروايات النثرية التاريخية يظل قليلا بين المؤرخين، ومن هنا أهمية مثل هذه الدراسـة .في الواقع، تحتل الاقتباسـات الشـعرية

مكانة مهمة في أعمال المؤرخين المماليك، الذين غالبًا ما يقومون بتأليف القصائد بأنفسهم، وعندما لم يكونوا هم أنفسهم شعراء، قاموا بتزيين سجلاتهم التاريخية بأبيات من الشعر، تختلف الأهمية التي يحظى بها الشعر في الكتابات التاريخية من مؤرخ إلى آخر، فبعضهم بالكاد استخدمه، فبعضهم الآخر، على العكس من ذلك بدائع الزهور في وقائع الدهور هو أحد أهم المصادر التي أحتل فيها الشعر مكانة كبيرة في سرد الأحداث، أحصينا أكثر من ٢٠٠٠ بيت شعر في هذا الكتاب تم إدراجها في سرد أحداث سياسية واجتماعية واقتصادية، وغيرها من الأحداث التاريخية.

أما عن مصادر الشعر في كتاب بدائع الزهور فهي:

١ ـــــــ **الأشعار التي تم الإشارة إلى ناظمها بشكل صريح:** لقد أحصينا في البدائع ٦٧ مصدر(شخص) للشعر (مؤرخون، شعراء، رجال دين، وغيرهم)، فبعضهم أخذ من شعره مرة واحدة، وبعضهم الآخر أخذ من شعره عدة مرات، وأهمهم: ناصر الدين محمد بن قانصوه من صادق، الشهاب المنصوري، شهاب الدين أحمد بن العطار المصري، بدر الدين محمد بن الزيتوني، شهاب الدين بن أبي حجة، شمس الدين القادري .

٢ ـ **الأشعار التي لم يتم الإشارة إلى ناظمها وبقي ناظمها مجهولا:** في هذه الحالة، استعمل ابن إياس عبارات مثل: "كما قال الشاعر" أو "كما قيل.

٣ ـــــ **أشعار من نظم ابن إياس نفسه:** أحصينا ٥٢١ بيتاً شعرياً في كامل الكتاب اذ يحتل الشعر مكانة مهمة في نشأة ابن إياس وحياته، اذ بمجالات تخصص أساتذته، التاريخ بشكل أساس والشعر بدرجة أقل. وبشكل عام، فإن معظم المؤرخين في العصر المملوكي كتبوا الشعر، لكن لم يتفوقوا جميعهم في هذا المجال .

ثانيا: الأنواع الشعرية في كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور

تظهر الكثير من الأنواع الشعرية في بدائع الزهور مثل: الرثاء، والتأبين، المدح، والهجاء، وصف الطبيعة، وغيرها وبدرجة أقل، شعر الغزل الغنائي المذكور في الإدخالات المخصصة

للمغنيات، وكثيراً ما يُدرج ابن إياس الأبيات الشـــعرية في نهاية تدوينه للوقائع التاريخية. ما يهمنا هنا هو الأشعار التي كانت من نظم ابن اياس وذلك لأن هذه الدراسة لا تستطيع الإلمام بكل الأشـعار الموجودة في بدائع الزهور فذلك يتطلب أبحاث كثيرة وموسـعة. نسـتطيع تمييز أنواع رئيسة لأشعار ابن اياس في بدائع الزهور وهي:

١-أشعار الرثاء

فمعنى الرثاء اصطلاحا مدح الميت بذكر صفاته ومناقبه الحسنة، أو هو تعداد مناقب الميت وإظهار التفجع والتلهف عليه واستعظام المصيبة فيه (الهاشمي: دون تاريخ، ٣٤٣). قسم شوقي ضيف شعر الرثاء على أساس قوة العاطفة وفتورها إلى ثلاثة أقسام: (ضيف: ١٩٨٧ ص٤٩. أيضا: أبو علي: ١٩٩٣، ٣٢ أيضا: أبو علي: ٢٠٠٨، ١٥٣)

الندب ، التأبين والعزاء. نستطيع تقسيم بدائع الزهور حسب المحتوى إلى قسمين: الأول هو الأحداث التاريخية. الثاني هو التراجم أو الوفيات وتميزت المعلومات المقدمة عن هذه التراجم بوجد الأشعار، الهدف من هذه الأشعار متمثل في رثاء المتوفى، مدح شخصية المتوفى، هجاء المتوفى وهي قليلة، أشعار قيلت بمناسبة حادثة مشهورة تتعلق بحياة المتوفى، اثبات قدرة المتوفى على كتابة الشعر. وكان ابن اياس يختار بضعة أبيات من أفضل أشعار المتوفي. أما ما يهمنا هنا فهو الشخصيات التي رثاهم ابن اياس بشعره فكانت للسلاطين والخلفاء ورجال الدولة من أصحاب الوظائف ورجال الدين وحتى بعض المغنين ونذكر من هذه الشخصيات: **السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد** (١٣٤٧/٧٤٨ - ١٣٥١/٧٥٢)، (١٣٥٤/٧٥٥-١٣٦١/٧٦٢) يقول ابن اياس (بدائع الزهور ج٣، ٤٠٣):

يا قبر لا تظلم عليه فطالما جلّى بطلعته دجى الإظلام

طوبى لقبر قد حواه كيف لا يحكى السماء وفيه بدر تمام

السلطان الأشرف جان بلاط (٩٠٥/١٥٠٠ – ٩٠٦/١٥٠١) في شعبان سنة (٩٠٦/١٥٠١)، ذكر ابن اياس خبر وفاة الأشرف جان بلاط ورثاه بأربعة أبيات يقول فيها(بدائع الزهور ج٣، ص٤٧٢):

جنبلاط بدا له طالع النحس أطرده

نجمه لاح مخبرا بعكوس مؤبّده

عندما ظنّ انه نال بالملك مقصده

جاءه الموت عاجلا في بروج مشيّدة

نلاحظ تطابق بين ما ذكره ابن اياس في الشعر مع ما ذكره من صفات في السيرة الذاتية للأشرف جان بلاط حيث كان ملكا جليلا وافر العقل وكان جميل الهيئة لكنه قاسى شدائد ومحنا، وكان قليل الحظ.

سليم الأول بن بايزيد الثاني (٩١٨/١٥١٢ – ٩٢٦/١٥٢٠) في شوال سنة (٩٢٦/١٥٢٠)، ذكر ابن اياس خبر موت سليم شاه، يقول: وقد رثيته بهذه الأبيات (بدائع الزهور، ج٥,ص٣٦٢) نذكر من هذه الأبيات:

لابن عثمان قصّة فاسمعوها وأعجبوا من صنع ربّ تعالى

ملك الشام للفراة وأضحى فاتكا في الأنام روحا ومالا

وأراد الخلود في ملك مصر قلت هيهات رمت هذا محالا

زال عنا بموته بجمرة دون حرب وكفى الله المؤمنين القتالا

إن المتتبع لأخبار سليم شاه في بدائع الزهور يرى بشكل واضح وجلي، عدم رضا ونقد واضح من ابن اياس لسليم شاه، كيف لا وهو الذي غزا مصر وقتل أمرائها، وشنق طومان باي على باب زويله، والتي كان لها وقع هائل عنده حيث يقول: أنه لم يسمع بمثل هذه الواقعة فيما تقدم من الزمان أن سلطان مصر شنق على باب زويله ويعتبر شنق طومان باي من نهايات سعد

سليم شاه ، بالإضافة على ذلك أن سليم شاه كان السبب في انقطاع الخلافة من مصر لتصبح باسطنبول، وشبه حادثة نقل الخليفة ومن معه من أهل مصر إلى اسطنبول بحادثة السبي البابلي ، لكن بعد مغادرة سليم شاه لمصر وعودته إلى إسطنبول، نلاحظ شبه انقطاع لأخبار سليم شاه إلا من بعض الرسل والرسائل والأوامر، التي كانت تصل إلى مصر ،أما في السيرة الذاتية عند الوفاة فانه لم يذكر صفات سلبية أو ايجابية لسليم شاه بل اكتفى بعرض أعماله وفتوحاته، وكأن ابن اياس تقصد ذلك والدليل ما قاله :(قد صار رهين الذنوب لا يعلم هو في نعيم أو عذاب (بدائع الزهور، ج٥,ص٣٦٢)).

– **الزيني أبو بكر بن مزهر** كاتب السر بالديار المصرية رثاه بقصيدة ذكر منها بيتان (بدائع الزهور ج ٣ ٢٥٥) يقول ابن اياس:

صارت مراملة كمثل أرامل تبكي بأعينها دما وتترب

وكذا الدواة تسودت أقلامها حزنا عليه وأقسمت لا تكتب

– **الاتابكي قرقماش من ولي الدين** اتابك العسكر بالديار المصرية رثاه ببيتان (بدائع الزهور ج ٤ ص ١٩٨) يقول ابن اياس وقد رثيته وهو قولي:

يا عين جودي بفيض دمع واكثري في البكا انتحابيك

على قرقماش قد رزينا واستوحشت مصر للاتابيك

– **المقر الناصري محمد** ولد السلطان وكان متولي شادية الشراب رثاه بيتان (بدائع الزهور ج ٤ ص ٧٨) يقول ابن اياس وقد رثيته بقولي:

لهفي على من كان ظني أنى أفنى المدائح في الثناء قوافيا

فمضى واثكلني فها انا ناظم تلك المعاني الغر فيه مراثيا

– **الريس نور الدين علي بن رحاب** المغني الناشد رثاه بأربعة أبيات (بدائع الزهور ج ٣ 435)

يقول ابن اياس: وفي هذا الشهر كانت وفاة الريس نور الدين علي بن رحاب، المغني الناشد المادح فريد عصره ووحيد دهره، وكان من نوادر الزمان ينظم الشعر ويركز الخفائف بالألحان الغريبة، وكان آخر مغاني الدكة في الدخول والطرب، ولم يجيء بعده أحد مثله في الدخول، وقد رثيته بعد موته بهذه الأبيات:

توفي نزهة الاسماع طرا وصار العيش منا في ذهاب

وناحت بعده الآلات حزنا وأظهرت الصراخ مع انتحاب

وابدى الدف والماصول زعقا كمن جاء الماتم في المصاب

وأضحى الناس في قلق ولم لا وقد ضاق الوجود بلا رحاب

٢ – أشعار المدح

معظم أشعار المدح التي نظمها ابن اياس كانت تخص السلاطين بشكل واضح، فظاهرة المقايضة بين الشعراء والسلاطين كانت موجودة بشكل قوي في العصر المملوكي، فالسلاطين قدموا للشعراء الألقاب والأرزاق والوظائف والمراتب العالية، وأصبحوا من ندماء السلاطين، لكن المقابل هو تسخير أقلامهم للمدح والثناء والتقدير لهؤلاء السلاطين (الأيوبي: ١٩٨٦. ٢١٧). لكن ابن اياس كان مؤرخا بالدرجة الأولى وشاعرا بدرجة أقل، ولم يكن من موظفي الدولة ولا شاعرا من شعراء البلاط، ولكن ربما شعر أن من واجبه أن يقدم المدح والثناء للسلطان الغوري مقابل إعادة إقطاعه إليه.

السلطان الغوري

في شهر جمادى الآخرة سنة (١٥٠٨/٩١٤)، يذكر ابن اياس خبر انتزاع السلطان الغوري لنحو ثلاثمائة إقطاع من اقطاعات أولاد الناس من أجناد الحلقة، والأنعام بهذه الاقطاعات على المماليك. يصف ابن اياس هذه الحادثة بأنها حادثة شنيعة (بدائع الزهور، ج٤, ١٣٦,) ويقول إنه واحد ممن انتزع منه إقطاعه ووزع على أربعة مماليك. وتعليقا على هذه الحادثة يذكر ابن اياس هذين البيتين (بدائع الزهور، ج٤, ١٣٦):

يا مالك الملك يا من بالعباد ألطف دبّر عبيدك وأصلح دولة الأشرف

كم من أقاطيع أخرجها وما أنصف وأطغى المماليك ذا يهجم وذا يخطف

يبدو من الطبيعي أن يبدي ابن اياس انزعاجه من هذه الحادثة، ويصف السلطان الغوري بعدم العدل لكن ابن اياس لم يسكت على هذه الحادثة، واستطاع الوصول إلى السلطان الذي رد إليه إقطاعه، فعند ذلك امتدح ابن اياس السلطان الغوري بقصيدة وأرسلها إليه عن طريق شخص من خواص السلطان. وهذه هي القصيدة كما ذكرت في بدائع الزهور: (بدائع الزهور، ج٤، ص١٧٣) {نذكر منها}

بلأشرف الغورى المفدّا أصبح ثغر الزمان باسم

يا قانصوه العلىّ قدرا فقت على من مضى وقادم

فكلّ يوم تراه عيدا به فأوقاتنا مواسم

بنى بمصر لله بيتا رخامه قائم ونائم

فجاء في حسنه فريد من كل عيب يقال سالم

إذا: محارب للفساد، حمد لله على اختيار الغوري كسلطان، العدل، قوته وقوة دولته، ليس له مثيل بالكرم والقوة، بناء بيت لله ذو الرخام، إضافات حسنة في القلعة والحديقة زادتهما جمالا. يقول ابن اياس إن هذه القصيدة عرضت على السلطان فاستحسنها) (بدائع الزهور، ج٤، ص٦٩)(لكن ابن اياس نفسه في مكان آخر من الكتاب) (بدائع الزهور، ج٤، ٣٢٢) يقول إن الناس لاموه على قوله :

قد أظهر العدل في الرعايا وأبطل الجور والمظالم

لأنه وباعتراف ابن اياس، أن السلطان الغوري كان في فترة كتابة هذه القصيدة (في قوة تعسفه على الناس في تلك الأيام (بدائع الزهور، ج٤، ٣٢٢)).

لكن السؤال ما الذي جعل ابن اياس يذكر صفات لم تكن موجودة في السلطان الغوري (مع اعترافه بذلك). ربما يكون ابن اياس أراد رد الجميل للسلطان الغوري، أو ربما نسي للحظات أن

العدالة لا تتجزأ وأن إنصافه من قبل الغوري لا ينفي صفة الظلم عن الغوري. أيا كانت الأسباب يبقى ابن اياس بشر قد يصيب ويخطأ، وشعوره بهذه الخطأ واضح، لكن يحاول تبريره في ضوء قوله (فما عن قريب حتى أظهر السلطان هذا العدل العظيم الذي وقع منه في هذه الأيام، فكان الفأل بالمنطق في إظهار عدله وقد ألهمه الله تعالى إلى ذلك (بدائع الزهو، ج٤، ٣٢٢)). لكن الشيء المهم هنا هو الرقابة المجتمعية على كل ما يكتب، وربما يكون هذا أحد أهم الأسباب التي جعلت الكثير من المؤرخين يمارسون النقد التاريخي على الروايات التاريخية خوفا من فقدان المصداقية.

٣ ــ أشعار الذم

الطابع السائد في أشعار العصر المملوكي كان المدح والرثاء، أما أشعار الذم فكانت قليلة إن لم تكن نادرة، أشعار الذم عند ابن اياس نرى أنها صادقة وأكثر وضوحا من أشعار الرثاء والمدح، لأن الإنسان يستطيع أن يجامل بمدح على عكس الذم الذي قد يسبب للشاعر الكثير من المشاكل، وخاصة إذا كان هذا الذم لرأس السلطة. عد كثير من الباحثين ان ابن اياس يتمتع بجرأة فائقة في نقده للسلاطين في العصر المملوكي، وأنه لا يخشى سلطة الحاكم، هذا صحيح إلى حد ما، لكن يجب ألا نبالغ في تضخيم هذه الجرأة لان معظم إن لم يكن كل ما كتبه ابن اياس من معلومات في تاريخه عن السلاطين كانت بعد وفاتهم (Al Amer, 2014 : 343–390)) ، بالإضافة إلى أن الكثير من السلاطين المماليك لم يكونوا متسامحين مع النقد، والأمثلة كثيرة في التاريخ المملوكي، ونذكر الحادثة التي ذكرها ابن اياس في أحداث سنة (١٤٩٨/٩٠٤) حيث قام الأمير طومان باي الداودار بضرب المغني المشهور في ذلك العصر علي بن رحاب، وأشهره (هذا الفعل مستعمل بكثرة من قبل ابن اياس ويعني التشهير بالشخص أي معاقبته أمام العامة وهو ما يعرف بعقوبة التعزير) في القاهرة والمشاعلية تنادي عليه: (هذا جزاء من يكثر كلاما ويدخل نفسه فيما لا يعنيه (بدائع الزهور، ج٣، ٤٠٧.)). وكانت خلفية هذه الحادثة أنه عندما وقع الخلاف بين الأمير اقبردي والأمير طومان باي

الدوادار، تعصب على ابن رحاب لاقبردي ضد طومان باي، وأخذ بسب طومان باي والأمراء المساندون له في المجالس جهارا.

ومن أشعار الذم التي نظمها ابن اياس كذلك كانت تخص السلطان الناصر حسن حيث يقول: (بدائع الزهور ج٣، ص٤٠٣)

سلطاننا الناصر المفدى أخباره نقلها صحيح

بالجهل أضحى قبيح فعل فلم يفد شكله المليح

وكنا قد ذكرنا بيتين آخرين لرثاء السلطان الناصر حسن نفسه حيث يقول ابن اياس (بدائع الزهور ج٣، ص٤٠٣):

يا قبر لا تظلم عليه فطالما جلّى بطلعته دجى الإظلام

طوبى لقبر قد حواه كيف لا يحكى السماء وفيه بدر تمام

لا نرى تناقض في الصفات التي أطلقها ابن اياس على السلطان الناصر حسن شعرا ونثرا، حتى أن البيتين اللذين رثى بهما السلطان حسن كانا لوصف شكله الجميل، الذي ذكره أيضا في سيرته الذاتية عند الوفاة، أما عن بعض الصفات التي وصفه بها ابن اياس عند ترجمته بعد الوفاة: {أنه جاهلا عسوفا، سفاكا للدماء سيئ التدبير، وقع منه أمور شنيعة في مدة سلطنته، لم يكن له من المحاسن إلا القليل كالكرم الزائد والشجاعة وشكله الحسن (بدائع الزهور، ج٣, ٤٠٣)}. وفي ربيع الآخر سنة (١٥٠٤/٩١٠)، يذكر ابن اياس خبر اهتمام السلطان الغوري بعمارة قاعة البيسرية وقاعة العواميد وغير ذلك من الأماكن التي بالقلعة، لكن حصل من السلطان ضرر كبير لأنه أمر بفك رخام قاعة (نصف الدنيا) التي بناها يوسف ناظر الخاص ووالد القاضي شهاب الدين أحمد ناظر الجيش بعد أن أفنى عمره في بناء هذه القاعة، وتم نقل رخام نصف الدنيا إلى قاعة البيسرية وقاعدة العواميد، ويصف ابن اياس هذه الواقعة بأنها من أقبح الوقائع، ويعلق على هذه الحادثة بالبيتين الآتيين (بدائع الزهور، ج٤ , ٦٨).

سلطاننا الغورى قد جار والصبر منّا قد أعيا

وصار في ذا الجور عمّال حتى خرب نصف الدنيا

وفي شهر جمادى الآخرة سنة (١٥٠٨/٩١٤)، يذكر ابن اياس خبر انتزاع السلطان الغوري لنحو ثلاثمائة إقطاع من اقطاعات أولاد الناس من أجناد الحلقة، والأنعام بهذه الاقطاعات على المماليك. يصف ابن اياس هذه الحادثة بأنها حادثة شنيعة (بدائع الزهور، ج٤،ص١٣٦)، ويقول إنه واحد ممن انتزع منه إقطاعه ووزع على أربعة مماليك، وتعليقا على هذه الحادثة يذكر ابن اياس هذين البيتين (بدائع الزهور، ج٤،ص١٣٦):

يا مالك الملك يا من بالعباد ألطف دبّر عبيدك وأصلح دولة الأشرف

كم من أقاطيع أخرجها وما أنصف وأطغى المماليك ذا يهجم وذا يخطف

يبدو من الطبيعي أن يبدي ابن اياس انزعاجه من هذه الحادثة، ويصف الغوري بعدم العدل.

وفي ربيع الآخر سنة (١٥١٣/٩١٩)، يذكر ابن اياس خبر أشيع بين الناس مفاده أن السلطان الغوري يريد أن يخلع نفسه من السلطنة بسبب مرضه١ . ويرجع ابن اياس سبب مرض الغوري لما اقترفت يداه من ظلم العباد فيقول شعرا: (بدائع الزهور ج٤، ص٣١٢)

سلطاننا الغورى غارت عينه لما اشترى ظلم العباد بدينه

لا زال ينظر اخذ ارزاق الورى حتى أصيب بآفة في عينه

وفي ذم **قاضي العسكر** وما حصل لأهل مصر من بلاء بسببه يقول ابن اياس:{وقد حصل لأهل مصر من قاضي العسكر غاية الضرر للرجال والنساء، ووقع منه أمور شنيعة ما تقع من الجهال ولا المجانين، فتزايد حكمه بالجور بين الناس وقد ضيق عليهم غاية الضيق ... وقد فتك قاضي العسكر بالناس في هذه الأيام فتكا ذريعا، وقد جمع بين قبح الشكل والفعل فأنه كان أعور بفرد عين ،بلحية بيضاء ،وقد طعن بالسن، وكان قليل الرسمال من العلم أجهل من حمار، لا يدري شيئا في الأحكام الشرعية ،وقدمت إليه فتاوى عدة فلم يجب عنها بشيء، وقد

هجته الناس هجوا فاحشا في مدة إقامته بمصر فقالوا فيه عدة مقاطيع وقلت أنا: (بدائع الزهور، ج5 , 467)

رأيتك لا ترى إلا بعين وعينك لا ترى إلا قليلا

فان تك قد أصبت بفرد عين فخذ من عينك الآخرى كفيلا

فقد أيقنت أنك عن قريب اذن بالكف تلتمس السبيلا

أيضا ذم **قاضي القضاة الحنفي علي بن ياسين الطرابلسي** بسبب ما وقع منه من وقائع شنيعة. يقول ابن اياس:

{وكان قاضي القضاة الحنفي غير محبب للناس، وكان عنده صعصعة وجن، وسوء تدبير ويبس طباع، مع رهج وخفة زائدة، مع عبوسة وجه وشناعة زائدة وقد قلت فيه: (بدائع الزهور، ج5 , 470)}

رب قاض قد اعتراه جنون شانه الرهج ما لديه سكون

لم يفده علمه إذا جن شيئا فهو فينا معلم مجنون

وقولي أيضا:

كم ضاع للنعمان من مذهب في عصرنا لما تولى فلان

تبا له من قاض أهوج احكامه مشهورة بالجنان

أيضا نظم ابن اياس بيتين من الشعر في ذم **ملك الامراء خاير بك** حيث يقول عنه:

وكانت أيام ملك الأمراء كلها ظلم وجور وقد قلت فيه: (بدائع الزهور، ج5 , ص482)

أعجبوا من نائب في مصرنا خانه الدهر وجازاه العمل

زال عنه الملك والمال معا وأتاه الموت يسعى بالعجل

ويضيف ابن اياس: {وكان كثير الحيل والخداع والمكر، وكان من دهاة العالم، لا يعلم له حال، ولو ذكرت مساوئه كلها لطال الشرح في ذلك، وقد قلت فيه هذه الأبيات عن لسان خاير بك (بدائع الزهور، ج5 , 485)}

أصبحت بقعر حفرة مرتهنا لا أملك من دنياي إلا كفنا

يا من وسعت عباده رحمته من بعض عبيدك المسيئين أنا

٤ ــ أشعار موكبة المناسبات القومية

ويتجلى ذلك في الانتصارات ، أو الخطر الذي يهدد البلاد، أو وقوع حادث يمس من كرامة السلطان، أو السلطنة (الأيوبي: ١٩٨٦، ٢١٧) فاعتاد الشعراء أن يدلي بدلوه في هذه المناسبات، ولم تقتصر القصائد والأشعار على شعراء البلاط، وإنما تعداه إلى غيرهم من الشعراء، فعلا ما يبدو أنها فرصة ذهبية لإبراز الذات والمقدرات الشعرية التي ربما تحقق للبعض المزيد من الشهرة، وهذا ما قام به ابن اياس عندما مدح السلطان قايتباي سنة (٨٨٦/ ١٤٨١) عندما ذكر خبر لجوء جمجمة ابن عثمان إلى السلطان الأشرف قيتباي هربا من أخيه أبو يزيد بن عثمان، فرأى ابن اياس أن احتماء الجمجمة بسلطان مصر قد زاد من هيبة السلطنة ومكانة مصر وسلطانها.فكانت أول أبيات من تأليف ابن اياس ذكرت في مدح **السلطان الأشرف قايتباي** (٨٧٢/١٤٦٨ – ٩٠١/١٤٩٦) يقول فيها مادحا للأشرف قايتباي: (بدائع الزهور، ج٣, ١٨٥)

يا أيها الملك الهمام ومن له أسد الفلا تأتي إليه ملجمة

قد فاق قدرك في الملوك تعاظما مذ صح بين يديك نطق الجمجمة

فإذا رجعنا إلى ما قدمه عن السلطان الأشرف قايتباي، لا نرى تناقضا في الحكم عليه، فمعظم الصفات التي ذكرها ابن اياس في سيرة قايتباي بعد الوفاة (بدائع الزهور، ج٣, ص ٣٢٤–٣٣٢) تدل على أن قايتباي عاش عمره في عز وشهامة، وكان سلطانا قويا شجاعا، بقي ثابت على كرسي السلطنة رغم الحروب التي خاضها مع شاه سيوار وحسن الطويل وابن عثمان وغيرهم ، وكان كفوا للسلطنة مبجلا في مواكبه عارفا بأحوال المملكة بل إنه يعده أفضل سلاطين الجراكسة لو لم يكن فيه عيب واحد وهو حبه لجمع المال، ومع ذلك انه يغفر لقيتباي هذا العيب لكثرة مصاريف الحروب التي خاضها ضد منافسيه (بدائع الزهور، ج٣, ٣٢٥). وتتجلى ظاهرة

الشعور القومي عند ابن اياس أيضا عندما أشيع في بلاد الصوفي (بأن السلطان قد اشتغل بما أنشأه في الميدان من غرس الاشجار وشتول أنواع الازهار والرياحين فقصدوا ينكتوا عليه بذلك وهذا نوع من التهكم على السلطان فأجبت عن ذلك بقولي: (بدائع الزهور، ج٤,ص٢٢٢))

بالسيف والخنجر نفني العدى وكم لنا في الحرب من باس

نسلب بالرعب عقول الورى وعقلنا وافر في الرأس

ويتابع: وقد عمل في ذلك جماعة كثيرة من الشعراء مقاطع عدة على أنواع مختلفة وقد قلت أيضا: (بدائع الزهور، ج٤, ٢٢٢)

ندفع بالصديق كيد العدى ونرفض الباغي الذي يأسى

ومن نراه زاغ عن شرعنا جوابه بالسيف في الرأس

ويذكر ابن اياس أن السلطان لم يعجبه شيئا من الأجوبة التي أجاب بها الشعراء، وإنما أعجبه قول صفي الدين الحلي فكتبه كجواب للصوفي وهو قوله: (بدائع الزهور، ج٤,ص٢٢٢)

ولي فرس للخير بالخير ملجم ولي فرس للشر بالشر مسرج

فمن رام تقويمي فاني مقوم ومن رام تعويجي فاني معوج

ويبدو أن ابن اياس قد أعطى اهتماما كبيرا لهذه الحادثة وحاول إعادة نظم بعض الأشعار للرد على الصوفي فيقول: وقلت أيضا بخلاف ما تقدم من المعنى من زيادة فيها: (بدائع الزهور، ج٤, ٢٢٢)

بالسيف والخنجر نفني العدى وكم لنا في الحرب من باس

وليس شرب الدم في شرعنا بجائز والذم للأسى

من يبغض الصديق أو صحبه فذاك اشقى الخلق في الناس

ان كان قد ضلت عقول لكم فعقلنا الوافر في الرأس

ومن مخترعات قولي في أشكال الشطرنج ملزما القافية على المعنى بما تقدم: (بدائع الزهور، ج٤, ٢٢٧)

عساكر الصوفي ان فرزنت فرخهم مكشوف للناس

ونفسهم قد أوجزت خيفة من عزمنا مع شدة البأس

وفيلهم قد صار ناموسه مذ قابل الأسد بافراس

ودستهم نصبا على رقعة ان ديدبوا مرمادهم خاسي

فان مشى من جيشنا بيدق يموت شاه طايح الرأس

ويبدو أن هذه الحادثة لاقت اهتماما كبيرا في المجتمع المملوكي فيقول ابن اياس: {وقد نظم في هذا المعنى جماعة كثيرة من فضلاء العصر فوق المائتي إنسان وقد جمعوا بين الغث والسمين وهذا ما وقع عليه اختياري من هذا المعنى بحسبما تيسر لي من المقاطيع الرقيقة من هذه الأجوبة والخنجر المقدم ذكر ذلك في أول المقاطيع من هذا المعنى فمن ذلك قولي:}

من عاب للنرجس والاس اف عليه في الورى اسى

ومن يكون السيف ريحانه لا رافة في قلبه القاسي

من كان يشرب الدم من شانه وكاسه جمجمة الرأس

فذاك كالكلب العقور الذي لا يختشى في الناس من باس

ويتجلى الشعور القومي عنده أيضا من خلال قصيدة نظمها في حادثة سفر السلطان منذ خروجه من مصر حتى وصوله إلى حلب لمواجهة العثمانيين فيقول: (بدائع الزهور، ج٥، ص61) {نذكر بعض الأبيات من الشعر}

ادعو بنصر للمليك الاشرف سلطان مصر ذي المقام الأشرف

قد قدر الرحمن نقل ركابه نحو الشام وحسنها المستظرف

اختار أن يطأ البلاد لكشفها فغدت تجود له بجود المتحف

خضعت له النواب طوعا باللقا من غير حرب أو حسام مشرف

ونظم ابن اياس أربعة أبيات من الشعر في وصف معركة مرج دابق والتي كانت بداية النهاية للعصر المملوكي فيقول فيها: {وانعقد بين الفريقين غبار حتى صار لا يرى بعضهم بعض

وكان نهار غضب من الله تعالى قد انصب على عسكر مصر وغلت أيديهم عن القتال وقد قلت في هذه الواقعة:(بدائع الزهور، ج٥، 61)}

لما التقى الجيشان مع سلطاننا في مرج دابق قال: هل من مسعف

فله اجاب لسان حال قائلا عرضت نفسك للبلا أي فاستهدف

واشتد بالجلبان رعب قلوبم وغدروا يقولون أي ارض تختفي

والنهب اطمعهم لذل نفوسهم حتى اتاهم بالقضاء المتلف

٥ – أشعار لمواكبة المناسبات السلطانية: مثل حفل مراسم تعيين السلاطين، أو المواكب السلطانية، أو شفاء من مرض، وغيرها من المناسبات (الأيوبي: ١٩٨٦، 218). فكانت تلقى الخطب والقصائد في هذه المناسبات وكأنها واجب وطني، وحتى العامة كانت تشارك في هذه المناسبات في الدعاء للسلاطين بشكل علني، فعبارات {ضج الناس له بالدعاء} كانت موجودة في بدائع الزهور في كل الأماكن التي تحدث بها عن تعيين السلاطين، شارك المجتمع في هذه المناسبات فقام بنظم أبيات من الشعر تواكب هذه المناسبات السلطانية ونذكر منها:عندما تولى **السلطان سليمان بن السلطان سليم شاه** (١٥٢٠/٩٢٦ – ١٥٦٦/٩٧٤) الحكم سنة (١٥٢٠/٩٢٦) مدحه ابن اياس بالبيتين التاليين (بدائع الزهور، ج٥, ص٣٦٣):

سرّنا لما ولي سلطاننا ابن عثمان وصرنا في أمان

وارثا للملك عن أجداده فهو في الملك سليمان الزمان

أيضا مدح **ملك الأمراء خاير بك** (١٥٢٠/٩٢٦ – ١٥٦٦/٩٧٤) وفي شهر شعبان سنة (١٥١٧/٩٢٣) عندما تم تعيين ملك الأمراء خاير بك من ملباي نائب السلطنة بالديار المصرية مدحه بالبيتين التاليين: (بدائع الزهور، ج٥,ص٢٠٩)

مصر أضحت في سرور عندما قد تولّى للنيابة خير بك

فلسان الحال عنها قائل يا لعمرى قد أتانى خير بك

وصف لموكب السلطان الغوري

يقول فيه: {وهذه الواقعة من معظم وقائع سنة ٩٢٠ قل أن يقع مثلها من الوقائع الغريبة في أخبار السلاطين، وقد نظمت في ذلك هذه القصيدة التي لم ينسج مثلها على منوال وهي هذه القصيدة: (بدائع الزهور، ج٥, ٤٢٢)} {نذكر منها}

سر الأنام لمقدم السلطان وتباشروا منه بكل أمان

وتغردت أطيار أزهار الربا فوق الغصون بأطيب الألحان

والروض أضحى زهره متبسما كتبسم الحسناء بضوء جمان

وتهللت من مصر دوحة روضها عند القدوم تهلل الفرحان

وصف موكب خوند زوجة العادل طومان باي

يقول: {وفي يوم الخميس سابعه صعدت خوند الخاصكية زوجة العادل طومان باي إلى القلعة ... ولم يتفق هذا الموكب لأحد من الخوندات قبلها، بأنه نزل من القلعة وعاد لها على هذا الوجه سواها ... وقد قلت في هذه الواقعة أبيات لطيفة في المعنى: (بدائع الزهور، ج٥, ٣٧٣)} {نذكر منها}

عادت خوند إلى سرور ثاني مذ زوجت بالعادل السلطان

في وجهها الاقبال والبشر الذي يتفاءلون به بكل لسان

طلعت كشمس الافق ضمن محفة تجلى كحور العين وسط جنان

لما أتت يحكى مواكب قيصر ضاهت على كسرى انو شروان

يقول ابن اياس: وقد عرضت هذه القصيدة على خوند لما طلعت إلى القلعة واستحسنتها.

أيضا نظم ابن اياس قصيدة لوصف **ليلة أقامها السلطان الغوري** حيث يقول: {نذكر منها}

لم يسمح الدهر فيما جاد من فرج كليلة سمحت للأشرف الغوري

فان ترد وصفها أنشدت مرتجلا في وقدة الليل بالأملاك والدور

من بر مصر ومقياس يقابله كان التقابل بين النور والنور

حاكت مصابيحها ضوء النجوم إذا ما أزهرت بالدجى في ليل ديجور

٦ ــ شعر الاقتباس

يعد الاقتباس مظهرا من مظاهر تأثر الشعراء بالتراث الأدبي، الاقتباس سواء أكان من القرآن الكريم، أم الأحاديث الشريفة، أم كلام العرب، وقد برز الاقتباس من القرآن الكريم في الإشارة إلى معنى أية قرآنية أو إلى قصة من قصص القرآن، أو استعمال ألفاظه، أما ابن اياس فقد أقتبس من القرآن الكريم في نظم بعض أشعاره، ونذكر منها:

الحالة الأولى وهي: ذكر لوفاة الأمير اقبردي الذي حصل منه غاية الضرر للناس، كما يقول ابن اياس:) {ولما مات كفى كل أحد شره، وقد قلت ذلك مع التضمين والاقتباس:}

مات اقبردي الامير وولى بعد عز وحاز جاها ومالا

فاتاه من بعد ذا ريب دهر نال منه من العنا ما أنا لا

وقضى نحبه بغير قتال وكفى الله المؤمنين القتال

هنا اقتبس عن قوله وكفى الله المؤمنين القتال من سورة الأحزاب

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾

]الأحزاب[25 :

الحالة الثانية جاء بسبب تولي الشرفي يعقوب الخلافة

وفي ذلك يقول:

{المتوكل عهد بالخلافة إلى ولده الشرفي يعقوب ... فلما بلغ ذلك ابن عمه خليل اضطربت أحواله وضاقت عليه الدنيا بما رحبت، وكان منتظرا للخلافة بعد عمه عبد العزيز ... وولي

الخلافة يعقوب على رغم أنف خليل كما سيأتي الكلام على ذلك في موضعه عن قريب، وقد قلت في هذه الواقعة مع التضمين :(بدائع الزهور، ج5 , ص38)}

قالت العليا لمن حاولها سبق المولى وقد حل عراها

فدعوا الحاسد فيها إنها حاجة في نفس يعقوب قضاها

هنا اقتبس ابن اياس قوله حاجة في نفس يعقوب قضاها من سورة يوسف.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ يوسف 68

٧ ـ شعر الفأل

يوجد أحداث كان وقوعها نذير شؤم في المجتمع المصري في ذلك العصر اذ ودونها وكانت مسبوقة أو متبوعة بكلمة (الفأل).

الفأل: هو قول أو فعل، يستعمل فيما يسوء وفيما يسر، واستعماله أكثر في السرور، فقد تخفف الهمزة فنقول الفأل كما هو الحال عنده، الذي استعمل الفأل بمعناه السلبي المتشائم أكثر من استعمال للفأل بمعناه الإيجابي المتفائل. أما عن نتائج الفأل السيئ عنده فجاء في حالات منها: زوال السلطان، وقوع فتن، خسارة معركة، زيادة كبيرة للنيل (نقصد هنا بالزيادة الكبيرة للنيل أي حدوث فيضان وإغراق للأراضي مما ينتج عنه سنة قحط)، نهاية سعد موظف (نهاية سعد موظف استعملنا هنا نفس العبارة التي يستعملها ابن اياس وتعني بداية مصائب ستحصل لموظف (في معظم الحالات الموظف هو واحد من رجالات الدولة المدنيين أو العسكريين).). ظاهرة الفأل موجودة في المصادر المملوكية، وأنه أخذ بعضا منها فيما يخص الأحداث التي لم يعاصرها، لكن اهتمامه بظاهرة الفأل وتدوينها وتعليقاته عليها في الفترة المعاصرة، تبعث بدلالات قوية على إيمانه بهذه الظاهرة، ففي فكره هذا يعكس ثقافة المجتمع المصري في ذلك الوقت، حيث لم تظهر أي إشارة طبيعية حتى يفسرها المصريون بنذير خير أو شؤم، ونستطيع أن نفسر ذلك بانتشار ظاهرة اليأس من تغيير الواقع الذي يعيشونه، وبروز إيمان كبير بظاهرة

التنجيم والأبراج في المجتمع المصري، يبدو أنه مؤمن بظاهرة الفأل، لكن ليس على طريقة التنجيم والأبراج، وإنما على طريقة التسليم بالقدر، ونستدل على ذلك في تعليقه على حادثة لم يصح فيها الفأل باستشهاده بالبيتين الآتيين: (بدائع الزهور، ج3، 277)

لا ترقب النجم في أمر تحاوله فالله يفل لا جدي ولا حمل

مع السعادة ما للنجم من أثر فلا يضرك مريخ ولا زحل

فكان الشعر الذي يخص ظاهرة الفأل كثير في بدائع الزهور، لذلك فضلنا ذكر ما تقدم، أما ما يخص الأشعار التي نظمها فيما تخص الفأل فلم نجد إلا حالة واحدة، نظم ابن اياس أربعة أبيات من الشعر كتعليق عليها. يقول ابن اياس في الحادثة: {فلما زاد النيل هذا الأصبع وسكن الاضطراب، شرع القاضي عبد العظيم المحتسب في تسعير البضائع قاطبة، فانصلحت أحوال الديار المصرية قليلا، ووقع الرخاء، وتفاءل بكعبه كل أحد من الناس وقد قلت في ذلك: (بدائع الزهور، ج5، 305)}

يا قاضيا قد غدا بالله محتسبا على الأعاد ولم يخش من الباس

رخصت أسعارنا من بعد ما غليت وحزت حسن الثنا من السن الناس

لما توليت زاد النيل وانفرجت وقد خزني كل خزان ودراسي

إن زال هذا الغاء من مصر لا عجب فكعبكم أخضر يزهو لى الاس

٨ ـ المداعبات الشعرية

عانى المجتمع المصري من الفوضى والظلم الذي تسبب به المماليك في كثير من الأحيان، وحدث أنه أجتمع جور المماليك مع **وجود الطاعون** بنفس الوقت، وفي ذلك يقول:

وصار الطعن عمال والمماليك جائزة .... حتى قلت في هذه المداعبة وهو قولي :(بدائع الزهور، ج5، 389)

أقول للطعن والمماليك جاوزتما الحد في النكاية

ترفقا بالورى قليلا في واحد منكما كفاية

وفي حادثة أخرى مختلفة تماما يذكر خبر **وفاة الشهاب أحمد المحلاوي** مؤذن السلطان ويقول: وكان حسن الصوت مطبوعا في فنه مقاتلا على الدخول، وكان لا بأس به، ومات وقد ناف عن الأربعين سنة من العمر، وقيل جاوز الخمسين، ومما يحكى عنه أنه كان عبيلا لا يطقنه النساء، وقد تزوج نحوا من مائة امرأة وقد قلت في ذلك مداعبة لطيفة: (بدائع الزهور، ج4، 218)

قالت نساء المحلي .....(فراغ

مؤذن لا يصلي كأنما هو ديك

حظيت **الأسعار** ومتابعة ارتفاعها وهبوطها باهتمام كبير من ابن اياس في بدائع الزهور، وارتبط هذا الارتفاع والهبوط بشكل أساسي بالنيل والنقود، ففيما يتعلق بهذا المجال يقول: {وفي هذا الشهر كان سعر الحلوى المشبك والمنفوش في غاية الارتفاع بموجب غلو السكر والفستق، فرفعت هذه القصيدة إلى القاضي بركات بن موسى المحتسب بمعنى أنواع الحلوى، وذكرت فيها أشياء لطيفة فمن ذلك قولي: (بدائع الزهور، ج4، 247) {نذكر منها}

لقد جاد بالبركات فضل زماننا بأنواع حلوى نشرها يتضوع

حكتها شفاه الغانيات حلاوة الم ترني من طعمها لست أشبع

وفاة قاني باي قرا أمير آخور كبير، وفي معرض حديثه عن سيرته الذاتية بعد الوفاة يذكر ابن اياس الكثير من مساوئه ويقول: {فلما مات لم يثن عليه أحد من الناس بخير قط، وقد قلت في ذلك مداعبة لطيفة: (بدائع الزهور، ج4 , 452)}

جهنم منذ قالت لقني باي خذ حذرك

قد زاد نيران وجدي من كثرتي لانتظارك

ثم يتبع بقوله: وأنا استغفر الله العظيم وأتوب إليه من ذلك، ولكن أحببت أن أذكر هنا شيئا من مساوئه حتى يعتبر من بقي، لعل أن تحسن أخبارهم من بعدهم.

أما الدعابة الأخيرة كانت في عرض الحديث عن **وفاة القاضي ابن النقيب** الذي تولي منصب القضاء ست مرات، ونفذ منه في هذه الست ولايات ستة وثلاثين ألف دينار، وكنت مدة إقامته في هذه الست ولايات نحو سنتين، ولم يمكث في كل ولاية غير أشهر ويعزل اذ يقول: (بدائع الزهور، ج5 , 36) وقد قلت في ذلك مداعبة لطيفة:

منصب الحكم في القضا قال لما كشف الله ما به من هموم

زال عني ابن النقيب واني كنت معه في قبضة الترسيم

الخاتمة

ما من شك أن ابن اياس أراد أن يكون للشعر دور كمصدر من مصادر التاريخ، لكن يبدو لنا أيضا أنه أراد أن يبرز جانب من مهاراته اللغوية، والمتمثلة في تأليف الشعر ومعرفة الشعراء وشعرهم وتذوقه له، وربما أيضا أراد أن يكون الشعر بمثابة زينة تضفي رونق أدبي على الأحداث التاريخية التي في أغلب الأحيان تكون جامدة، وهذا يتماشى مع الهدف الذي وضعه لنفسه عند تأليف كتاب البدائع حيث أراد أن يكون (فيه فوائد سنية وغرائب مستعذبة مرضية، تصلح لمسامرة الجليس وتكون للمنفرد كالأنيس... فجاء بحمد الله ليس بالطويل الممل ولا بالقصير المخل. (بدائع الزهور، ج١، ق١، ٣)). ويؤكد أيضا أن يكون للإمتاع وذكر الأخبار الطريفة والعجيبة التي تصلح لمسامرة الجليس (بدائع الزهور. ج٥، ٤٩٤)

تاريخنا بهجة المجالس يطرب من لفظه المجالس

سماعه للورى سرور يشرح صدرا لكل عابس

لكن مع ذلك نرى أن هنالك فكر تاريخي نقدي عنده ، يميزه عن غيره من المؤرخين المماليك اذ يظهر ذلك جليا في تعليقاته على الأحداث التاريخية في حياة كل سلطان والملخص التقييمي الذي قدمه في السيرة الذاتية عند وفاة كل منهم هذا ظاهر للعيان لا غبار عليه فكان للصفات الايجابية والسلبية _سواء أكانت نثرا او شعرا _ التي ساقها في كتابه ما الذي فسرها، أشارت

مجموعة من كتب الأدب والنقد أن ما يلفت الانتباه في معظم الشعر المملوكي هو غلبة مذهب السهولة عليه اذ القليل منه جزل، وما عداه خفيف ولعل ذلك يعود الى تفشي العامية والغناء، بالإضافة الى دور المقطوعات التي اجتهد الشعراء في أن تكون خفيفة لطيفة اللفظ واضح المعاني، بعيدا عن الجزالة القوية (خفاجي: 2004، ٩٩ أيضا، الهيب: 1986. ٣٧٧-٣٧٦). ويمكن القول أنه حافظ في شعره على لغته ذات الألفاظ العربية البسيطة إلى حد ما، فجاءت لغته في جزء كبير منها سهلة واضحة شأنه في ذلك شأن لغة الشعر في عصره، اذ تمتع باطلاع واسع على علوم عصره وعلمائه، وأدبائه، ومما لا شك فيه أنه كان ذا ميول أدبية، وتذوق مرهف للشعر، ويبدو هذا جليّاً في ترجمته كثيراً من الشعراء، وفي شرحه لنتاجاتهم، وفي حفظه لأشعارهم، واستشهاده بها في كثير من المناسبات. وكان هو نفسه ينظم الشعر، وقد وشّى كتابه «بدائع الزهور» بكثير منه، وقد طرق معظم أغراض الشعر، كالمديح، والرثاء، والوصف، والحكمة، ويتضح من أشعاره التي كتبها في مناسبات خاصة أو عامة فأنه عاش متتبعا لحوادث المجتمع الذي تقلب فيه وليس ذلك بصفته مؤرخا معنيا بتدوين الحوادث والأخبار فحسب بل لأنه كان رجلا حيا حساسا بما يجري في دولة بدت عليها مخايل الاحتضار والزوال.

المصادر والمراجع

١ ـ ابن اياس: ١٩٨٣ بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

٢ ـ البكري محمد بن ابي السرور:٢٠٠٧، التحفة البهية في تملك العثمان الديار المصرية، تحقيق، عبد الرحمن عبد الرحمن عبد الرحيم، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة.

٣ ـ حاجي خليفة:١٩٨٢، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تحقيق، محمد شرف الدين يالتقايا، دار احياء التراث العربي، بيروت.

٤ ـ العريني السيد الباز:١٩٦٧، المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة.

القلقشندي:١٩٨٧، صبح الاعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب العلمية، بيروت.

٥ ـ ابن اياس:١٩٥١، صفحات لم تنشر من بدائع الزهور في وقائع الدهور. تحقيق، محمد مصطفى، دار المعارف، القاهرة.

٦ ـ الهاشمي أحمد: دون تاريخ، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، دار الكتب العلمية، الطبعة السابعة والعشرون، بيروت.

٧ ـ عاصي حسين: ١٩٩٣، ابن اياس مؤرخ الفتح العثماني لمصر، دار الكتب العلمية، بيروت.

٨ ـ ضيف شوقي:2007 تاريخ الأدب العربي الرثاء، دار المعارف، القاهرة.

٩ ـ المغربي عزيزة بشير احمد:١٩٨٩، الشعر الاجتماعي في العصر المملوكي اتجاهاته وخواصه الفنية رسالة دكتوراة، إشراف محمود عبد ربه فياض، مكة المكرمة، جامعة أم القرى.

١٠ ـ أمين فوزي محمد١٩٨٢، المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول، دار المعارف، القاهرة.

١١ ـ سلام محمد زغلول: ١٩٧٠ الأدب في العصر المملوكي، دار المعارف، القاهرة.

١٢ ـ عنان محمد عبد الله: ١٩٦٩، مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري، مكتبة لجنة التوزيع وانشر والترجمة، القاهرة.

١٣ ـ زيادة محمد مصطفى: 1949 المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر ميلادي التاسع الهجري، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة.

١٤ ـ رزق محمود سليم: ١٩٥٥، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، المطبعة النموذجية، القاهرة.

١٥ ـ أبو علي نبيل خالد: ٢٠٠٨، الأدب العربي بين عصرين المملوكي والعثماني، دار المقداد للطباعة، غزة.

١٦ ـ أبو علي نبيل خالد: ١٩٩٣، محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني، مطبعة الوحدة، رام الله.

١٧ ـ الأيوبي ياسين ١٩٨٦، الشعر والسلطة في العصر الأيوبي. مجلة التراث العربي، دمشق.

١٨ ـ عبد الغني يسري ٢٠٠٠، مؤرخون مصريون من عصر الموسوعات، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

١٩ ـ خفاجي محمد عبد المنعم: 2004، الحياة الأدبية بعد سقوط بغداد، الإسكندرية، دار الوفاء.

٢٠ ـ الهيب، أحمد:1986 ، الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء، بيروت، مؤسسة الرسالة.

21 – Brockelmann, Carl, 1909, Geschichte der Arabischen Litteratur, 3 tomes, Leiden: Brill. (traduit vers l'arabe par al-Najjār, 1961-1962, Tārīkh al-adab al-ʿarabī).

22 - Lellouch, Benjamin, 2006, Les Ottomans en Egypte, historiens et conquérants au XVI siècle, Paris : Peeters.

23 - Cahen, Claude, 1936, « Les chroniques arabes concernant la Syrie, l'Egypte et la Mésopotamie de la conquête arabe à la conquête ottomane dans les bibliothèques d'Istanbul », REI, Cahier IV, p. 333-362.

24 - Espéronnier, Maryta., 1996, "Un regard du côté mamlouk à travers les témoignages de Maqrīzī et d'Ibn Iyās", Les Ottomans et la mort : permanences et mutations, sous la dir. de G.Veinstein Leiden : Brill, p. 175-186.

25 - Espéronnier, Maryta., 1997, "La mort violente à l'époque mamelouke : le crime et le châtiment : les témoignages de Maqrīzī et d'Ibn Iyās", Der Islam, vol. 74 no.1, p. 137-155.

26 - Lellouch, Benjamin. , 1995, "Le téléphone arabe au Caire au lendemain de la conquête ottomane : on-dits et rumeurs dans Ibn Iyās", Revue du Monde Musulman et de la Méditerranée, vol. 75-76, p. 117-130.

27 - Lellouch, Benjamin., 1998, "Le douzième ǧuz' perdu des Badā'i' al-zuhūr d'Ibn Iyās à la lumière d'une chronique Turque d'Egypte", Arabica, vol. 45 n°. 1, p. 88-103.

28 - Martel-Thoumian, Bernadette, 2000, "Le manuscrit Tārīkh 4534 de Damas : un nouvel exemplaire de Badā'i' al-zuhūr fī waqā'i' al-duhūr d'Ibn Iyās", Annales Islamologiques, p. 315-325.

29 - Martel-Thoumian, Bernadette, 2004, "la mort volontaire : le traitement du suicide et du suicidé dans les chroniques mameloukes tardives", Annales Islamologiques, p. 405-435.

30 - «Martel-Thoumian, Bernadette, 2013, "Ibn Iyās et les chanteuses ou quand l'art s'invite dans la chronique historique", (872-923/1468-1517), Journal Asiatique, vol. 301, p. 425-434.

31 - Martel-Thoumian, Bernadette., 1999, "Les notices biographiques dans les Badā'i' al-zuhūr fī waqa'i' al-duhūr d'Ibn Iyās(années 801-810 / 1398-1408)", Annales Islamologiques / Ḥawlīyāt Islāmīya, vol. 33, p. 121-139.

32 - AL AMER Ahmad : 2014 L'historiographie à l'époque mamelouke à travers l'exemple de l'ouvrage Badā'i' al-zuhūr d'Ibn Iyās : analyse de la méthode et du contenu, thèse de doctorat sous la direction de Michel Tuchscherer, Aix Marseille Université.

33 - AL AMER Ahmad :2016 Matériaux, mentalités et usage des sources chez Ibn Iyās. Mise au point du discours historique dans les Badā'i' al-zuhūr fī waqā'i' al-duhūr, préfacé par Jean-Claude Garcin, Éditions Universitaires Européennes, Saarbrücken